المجلد السابع والعشرون للعام ٢٠٢٣م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

سورة الحجرات ويس
قراءة في ضوء نظرية التأدُّب

Surat al-Hujurat is not a reading in the light of the theory of discipline

بقلم الباحثة

منيرة بنت فالح الدعجاني

باحثة دكتوراه قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة الملك فيصل - المملكة العربية السعودية

العدد الثالث (إصدار ديسمبر ٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٣/٦٩٤٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجرات ويس قراءة في ضوء نظرية التأدَّب

منيرة بنت فالح الدعجاني

قسم اللغة العربية - كلية الآداب ـ جامعة الملك فيصل - المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني : 220003269@student.kfu.edu.sa

الملخص

هذا البحثُ دراسةٌ عن مبدأ التأدُّبِ ، وهو مبدأٌ من المبادئ التي حثَّ عليها الإسلامُ ، وعنوانه : (سورة الحجرات ويس قراءة في ضوء نظرية التأدُّب) ، ولهذا الموضوعِ أهميةٌ كبيرةٌ ؛ إذْ إنَّه يتناولُ مبدأَ التأدُّبِ من خلال كتاب الله ﷻ ــ القرآن الكريم ــ ، وفي هذا الموضوع تأكيدٌ على أهمية هذا المبدأ ؛ لذا اخترتُ أن يكونَ موضوعَ بحثي في هذا المبدأ الإسلامي .

ويهدفُ هذا البحثُ إلى إبراز مبدأ التأدُّبِ ضمنَ مبدأ التعاون في الاستلزام الحواري ، وما يُصاحبَ القولَ من أشياءَ ليست لغويةً تراعي ما تقتضيه الأبعادُ الشرعيةُ والاجتماعيةُ والذاتيةُ، و"ينجزُ المرسلُ خلالها أفعالًا غير مباشرةٍ باستعمال أفعالٍ لغويةٍ أخرى ؛ لتدلَّ على معنًى آخرَ غير الذي حدث له في حقيقتها ؛ فتُولَّدُ معانٍ أصليةٌ ، وتردُ في سياقاتٍ تناسبُ المقامَ ، ويكون بواسطة ما يُسمَّى بقرائن الحال، كما أنَّ تطويعَ مبدأ التأدُّب في التداول ونظرية الاستلزام الحواري وتطويعَهما لفهم الدلالات والتوجيهات الإلهية من خلال تفسير المفسِّرين قد يوصلُنا إلى ثمراتٍ تبرزُ إعجازَ القرآن الكريم لنظريات البشر ، وتُؤكِّدُ على إلهية النَّص القرآني .

وقد اعتمدت الدراسةُ في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، لمبدأ التأدُّبِ في سورتي : (يس والحجرات) ، وقد جاءَ البحثُ في مبحثين تسبقهما مقدمةٌ ، وتفقُوهما خاتمةٌ مردوفةٌ بقائمة المصادر والمراجع ، ثُمَّ فهرس المحتويات .

وكان من أبرز النتائج: أنَّ للتأدُّبِ عند التخاطب قواعدَ ثلاثةٍ ، وهي : التعفُّف ، والتشكُّك أو التخيير ، والتودُّد ، وجاءت هذه القواعدُ الثلاثةُ في سورة الحجرات متراوحةً بين الخبر والإنشاء ، كما أظهرت سورةُ يس معالمَ المبدأ "مبدأ التأدُّب" بقواعده الثلاثة: (التعفُّف والتخيير والتودُّد) سلبًا وإيجابًا متراوحةً بين درجات الحوار اللفظي ، وما يُواكبُه من مقتضيات الحوار السياقي .

الكلمات المفتاحية: سورة ، نظرية ، التأدَّب ، يس ، الحجرات

Surat al-Hujurat is not a reading in the light of the theory of discipline

Munira Bint Faleh Al-Dajani
Department of Arabic Language - Faculty of Arts, King Faisal University - Kingdom of Saudi Arabia.
Email: 220003269@student.kfu.edu.sa

Abstract

This research is a study on the principle of politeness, which is one of the principles encouraged by Islam, and its title is: (Surat Al-Hujurat Wais, a reading in the light of the theory of politeness), and this topic is of great importance. As it deals with the principle of discipline through the Book of God - the Holy Qur'an - and in this topic there is an emphasis on the importance of this principle. So I chose to be the subject of my research in this Islamic principle.

This research aims to highlight the principle of politeness within the principle of cooperation in dialogue engagement, and the non-linguistic things that accompany the statement that take into account what is required by the legal, social and subjective dimensions, during which the sender performs indirect actions using other linguistic actions. to indicate a meaning other than what happened to him in reality; Original meanings are generated, and are presented in contexts appropriate to the situation, and this is done through what is called circumstantial evidence. Likewise, adapting the principle of politeness in deliberation and the theory of dialogic obligation and adapting them to understand the divine connotations and directives through the interpretation of the commentators may lead us to results that highlight the miracle of the Holy Qur'an to human theories, and confirm the divinity of Quranic text.

The study in this research relied on the descriptive and analytical approach, based on the principle of politeness in Surahs: (Yasin and Al-Hujurat). The research consisted of two sections preceded by an introduction and explained by a conclusion accompanied by a list of sources and references, then a table of contents.

One of the most prominent results was that there are three rules of politeness when communicating, which are: abstinence, skepticism or choice, and courtship. These three rules came in Surah Al-Hujurat, ranging between predication and construction. Surah Yaseen also showed the features of the principle 'principle of politeness' with its three rules: (control and choice). And courtship) negatively and positively, ranging between degrees of verbal dialogue, and the requirements of contextual dialogue that accompany it.

Keywords: Surat, Theory, Politeness, Yassin, Al-Hujurat .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ للهِ الذي نَزَّلَ الكتابَ تِبياناً لكلِّ شيءٍ وهدًى ورحمةً وبُشرى للمسلمين، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد النَّبي الأمِّي الأمين أفصح المتكلمين وسيد الأولين والآخرين وشفيعنا يوم الدين، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومَن تبعهم بإحسانٍ، وسار على نهجهم إلى يوم الدين .

وبعد

فالقرآنُ الكريمُ كتابُ الله الخالدُ، ومعجزةُ الإسلام الباقيةُ إلى أن تقومَ الساعةُ، تكفَّلَ اللهُ ــ تعالى ــ بحفظه إلى يوم الدين، فقال ــ وهو أصدقُ القائلين ــ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجرات آية رقم (٩)

ومن مظاهر ذلك أن سخَّرَ اللهُ ﷻ علماءَ أجلَّاءَ وَهَبُوا أنفسَهم لخدمة دينه، فعكفتْ طائفةٌ منهم على دراسةِ كتابِ اللهِ، وتفسيره وإعرابه ؛ فإنَّ عطاءَه لا ينفذُ وعجائبَه لا تنقضي ، وقد أودع اللهُ في ألفاظ القرآن وتراكيبه أسرارًا مهما كتب عنها الدارسون والباحثون فلن يعطوها حقَّها ، فإعجازُ القرآن لمْ يستطعْ أن يجاريَه أفصحُ فصحاء العرب ، ومن مظاهر ذلك حديثُه عن التأدُّب ، والذي يقرأُ القرآنَ الكريمَ ويتدبَّرُ معانيَه يجدُ مبدأَ التأدُّب يبرزُ ضمنَ مبدأ التعاون في الاستلزام الحواري ، وما يصاحبَ القولَ من أشياءَ ليست لغويةً تراعي ما تقتضيه الأبعادُ الشرعيةُ والاجتماعيةُ والذاتيةُ، و"ينجزُ المرسلُ خلالها أفعالًا غيرَ مباشرةٍ باستعمال أفعالٍ لغويةٍ أخرى ؛ لتدلَّ على معنًى آخرَ غير الذي حدث له في حقيقتها ؛ فتولِّدُ معانٍ أصليةٌ، وتردُ في سياقاتٍ تناسبُ المقامَ، ويكون بواسطة ما يُسمَّى بقرائن الحال ".

ويفتح تساؤلات الدراسة على نحو الآتي :

- تسليط الضوء عل سورتي الحجر ويس في ضوء نظرية التأدب
- الكشف عن الحقائق المتعلقة في هاتين السورتين الحجر ويس
- الوقوف على أبرز الأساليب الأسلوبية والبلاغية في سورتي الحجر ويس.
- رصد أبرز مبدأ معالم التأدب في سورتي الحجر ويس .

تناولت هذه الدراسة ظاهر مبدأ التأدب أحدى ظواهر التداولية في سورتي الحجرات ويس وهذه الظاهرة إحدى قواعد والتهذيب وهي (التأدب)

وتعريف بهذا المبدأ هي محاولة إيجاد جذور له من القرآن الكريم في هاتين السورتين

وتُعدُّ روبين لايكوف أولَ مَن عرض لمبدأ التأدُّبِ في مقالها : (منطق التأدُّب) ، حيث صاغت من خلاله ثلاثَ قواعدَ للتخاطب ، هي :

١ – قاعدة التعفُّف : " لا تفرضْ نفسَك على المرسل إليه ، أي : لتبقَ متحفظًا، ولا تتطفلْ على شؤون الآخرين "[1]، "وترومُ قاعدةُ التعفُّف إلى ما يلي:

- أن يتجنبَ المتكلِّمُ الإلحاحَ على المخاطب أو إكراهَه على فعلٍ ما.
- أن يستعملَ المتكلِّمُ عباراتٍ تمكِّنُه من حفظ المسافة بينه وبين المخاطب.
- أن يتجنبَ المتكلِّمُ الصيغَ التي تحملُ دلالةً وجدانيةً، مثل: أفعال القلوب.
- أن يحترزَ المتكلِّمُ من استعمال عبارات الطلب المباشرة.

●أن لا يقتحمَ المتكلِّمُ الشؤونَ الخاصةَ للمخاطب، إلَّا بعد الاستئذان، وأن يقدِّمَ اعتذارَه بعد ذلك."[٢] .

٢- قاعدةُ التشكُّكِ أو التخيير : " وصيغتها: لتجعلَ المخاطبَ يتخذ بنفسه وعدم استعمال أساليب الجزم والإلحاح "[٣] . " فتعمل ــ أحيانًا ــ باتساقٍ مع قاعدة التعفُّف ، وقد تحلُّ محلَّها عندما لا تناسبُ السياقَ، فتعمل بمعزلٍ عنها، وتهدفُ هذه القاعدةُ إلى ما يلي:

●أن يتركَ المتكلِّمُ للمخاطب مبادرةَ اتخاذ القرارات ، وذلك بتجنُّب أساليب التقرير، والأخذ بأساليب الاستفهام، كما لو كان متشككًا في مقاصده، كأن يقولَ المتكلمُ: ما رأيُك في تناول قدحٍ من الشاي بدلًا من القول: تناولْ قدحًا من الشاي.

●الاعترافُ بمكانة المخاطب، بوصفه طرفًا في الخطاب، يتمتَّعُ بقدراتٍ تؤهِّلُه للمشاركة في إنجاز الفعل.

●اعتمادُ الملمحات الفعلية، كـ"أعتقد وأتوقع" من قِبل المتكلم، مع ثقته فيما يقوله، وحتى لا يُحرجَ المخاطَبَ ويُطمئنه"[٤].

٣- قاعدةُ التودُّد "و قوامها : لتظهرَ الودَّ للمخاطب "[٥]، " أمَّا قاعدةُ التودُّد، فتقتضي

ما يلي :

●أن يتودَّدَ المتكلِّمُ إلى المخاطَب في أثناء خطابه، علامةً على تأدُّبه معه بوصفه صديقًا مرغوبًا فيه.

●أن يستعملَ المتكلِّمُ الأدواتِ والأساليبَ والصيغَ التي تُقوِّي علاقةَ التضامن والصداقة بينه وبين المخاطَب ، فيطمئن إلى ما يبديه المتكلمُ ، في ثقةٍ وعنايةٍ "[٦].

وعند "ليتش" في كتابة مبادئ التداولية بمبدأ "اللطف أو الخلق "،ويعده "ليتش "مبدأ التأدب الأقصى يتضمن محموعة من القواعد منها :

- قاعدة اللباقة
- قاعدة السخاء
- قاعدة التواضع
- قاعدة الانفاق
- قاعدة التعاطف

نلاحظ أن مبدأ التأدب الأقصى ليتش يوجد له دور تنظيمي ؛ لأنه يحافظ على التوزان الاجتماعي وعلى التوزان الاجتماعي وعلى علاقات الصداقة التي تمكننا من نفترض بأن مخاطبنا متعاون معنا في المقام الأول، وحتى نضع الأمور على أفضل حالها (٧)

ويصوع مبدأه في صورتين اثنتين : إحداهما سلبية وإيجابية والربطُ بين الاستلزام المعرفي والاستلزام الحواري في سياق نظريةٍ أو مبدا يُعدُّ نتاجًا بشريًّا جديدًا ؛ إذْ إنَّ الدراساتِ فيها ما زالت في بداياتها بين مائلٍ إلى كلِّ ما هو جديدٌ داعمٌ لها وبين مَن يراها عبئًا على الدرس اللغوي ، مُبْرِزًا أخطاءَها وتناقضاتِها .

و ليس مجالُ دراستنا مناقشةَ هذه المساجلات اللغوية ، لكنَّ رؤيتَنا أنَّ الفكرَ الإنسانيَّ – وإنْ شابه قصورُ البشر – إلَّا أنَّه قد يرقَى ليكونَ طريقًا لفهم النَّص ودلالاته السياقية واللفظية ؛ وعليه فإنَّ تطويعَ مبدأ التأدُّب في التداول ونظرية الاستلزام الحواري وتطويعَهما لفهم الدلالات والتوجيهات الإلهية من خلال تفسير المفسِّرين قد يوصلُنا إلى ثمراتٍ تبرزُ إعجازَ القرآن الكريم لنظريات البشر ، وتُؤكِّدُ على إلهية النَّص القرآني .

و اخترنا في سبيل ذلك أنموذجين ، هما :

الأول : (مبدأُ التأدُّبِ في بعض آيات سورة الحجرات) .

الثاني : (مبدأُ التأدُّبِ في بعض آيات سورة يس) .

وقد اعتمدت الدراسةُ في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي ، لمبدأ التأدُّبِ في سورتي : (يس والحجرات) ، وقد جاءَ البحثُ في مبحثين تسبقهما مقدمةٌ ، وتفقُوهما خاتمةٌ مردوفةٌ بقائمة المصادر والمراجع ، ثُمَّ فهرس المحتويات .

وأخيرًا فهذا البحثُ خلاصة جهدي، وإنَّني لا أزعمُ الكمالَ، فالكمالُ لله وحدَه، وحسبي أنَّني حاولتُ وبحثتُ ، فإنْ أكن أصبتُ فلله الحمدُ والمِنَّة، وإنْ أكن أخطأتُ فمن نفسي ، واللهَ أسألُ أن يقبلَه منِّي بفضله وجوده إنَّه وليُّ ذلك والقادرُ عليه .

وصلى اللهُ على سيدنا محمدٍ وعلى آلة وصحبه وسلَّمَ

المبحث الأول :

مبدأ التأدُّبِ في بعض آيات سورة الحجرات :

تبرزُ القواعدُ الثلاثةُ في السورة متراوحة بين الخبر والإنشاء وتُضفي صورةً فريدةً للتعفُّف في القول والفعل والسلوك والاجتماع ومع الذات نفسها، وتُبرزُ كيف يكونُ التودُّدُ بين العبد وربِّه وتعليم المؤمنين كيفيةَ إعمال العقل في الاختيار بين طريق الإيمان وما دونه .

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " الحجرات ١

" جاءت هذه الآيةُ بالنداء ؛ لتنبيه المخاطبين على أنَّ ما في حيِّزه أمرٌ خطيرٌ يستدعي مزيدًا من اعتنائهم وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان ؛ لتنشيطهم والإيذان بأنَّه داعٍ للمحافظة عليه ورادعٌ عن الإخلال به "[٧] ، فتحريكُ صفة الإيمان في النفس تحريكٌ لودِّ المؤمن مع خالقه ، فأهلُ الإيمانِ بالله الواجبُ عليهم إظهارُ ودِّهم لخالقهم و إبراز حبِّهم له ــ سبحانه وتعالى ــ وامتثالًا لما أمر به أو نهى عنه .

" لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ "الحجرات ١

نهيٌ بطلب الكفِّ عن فعلِ أي فعلٍ ، أو قولِ أي قولٍ قبل أن يأمرَ به اللهُ أو رسولُه صلى الله عليه وسلم "، والمعنى: أن لا تقطعوا أمرًا إلَّا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه ، فتكونوا إمَّا عاملين بالوحي المنزَّل ، و إمَّا مقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم "[٨]، وهي إشارةٌ إلى وجوب تعفُّف المؤمنين في خطابهم ومقامهم مع خالقهم ومع نبيهم .

" وَاتَّقُوا اللهَ ..."الحجرات ١

أمرٌ من الله يُحرِّكُ في النفس صفةَ الاختيار، ويُشعرُ المؤمنين بأنَّهم مخيَّرون غير مجبرين، وهو تعليمٌ للمؤمنين كيف تكونُ عقولُهم مختارةً

متخذةً قرارَها من ذاتها ، ومحرّكها الإيماني نابعٌ من الودِّ مع الله ، وتبرزُ عفَّةُ نفوسهم ورُقيها بالبعد عن مجاوزة أمر الله ونهيه، فلا اقتراحَ ولا رأيَ؛ حبًّا لله وخشيةً منه، ما دام لم يُطلبْ منهم ذلك ، " فإن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبةُ الله تجنُّبَه"(٩).

" إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " الحجرات١

خبرٌ مؤكَّدٌ بـ (إنَّ) مع أنَّ المؤمنين يعلمون الأمرَ، لكنَّه تأكيدٌ من الخالق لكلِّ ما ورد في الآية من مبادئَ في التعفُّف مع اللهِ ورسوله والتودُّد لهما وتحقيق الخيرة المطلقة لله ورسوله، " إنَّ اللهَ سميعٌ لما تقولون عليمٌ بما تعملون، وحقٌّ مثلِه أن يُراقبَ " (١٠).

فالآيةُ الواحدةُ اشتملت على صورة التأدُّب التي أبرزتْها "لايكوف" في قواعدها الثلاثة للتأدُّب من تعفُّف وتحرُّج المؤمنين مع الله ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن التودُّد مع الخالق ونبيه صلى الله عليه وسلم وجعل الاختيار المطلق لهما بالتقوى التامة .

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...." الحجرات٢

وتكرارُ النداء يُحرِّكُ مشاعرَ الإيمان في النفس ويُعلِّمُ المؤمنين كيف يكونُ حوارُ الودِّ بتكرار ألفاظه، كما يُعلِّمُهم كيف تتجدَّدُ النصيحةُ متشحةً بالرفق والودِّ، وهو " استدعاءٌ منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطابٍ واردٍ وتطرية الإنصات لكل حكمٍ نازلٍ " (١١).

" لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ " الحجرات٢

نهيٌ من الله ــ سبحانه وتعالى ــ يحملُ معنى الأمر بخفض الصوت ، ومعناه: " لا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وبحضرته إذا كلَّم بعضُكم بعضًا ، وقد تحصَّل من هذا النهي معنى الأمر بخفض الأصوات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذْ ليس المرادُ أن يكونوا سكوتًا عنده "[١٢] وهو تأدُّبٌ يحملُ الوقارَ والاحترامَ والتقديرَ لمكان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو من تودُّدِ المؤمن المخلص مع نبيه ومن إرشاد المؤمنين ليكملَ إيمانُهم وتسمو أساليبُهم الحوارية .

" أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ..." تحذيرٌ من الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ يُعلِّمُ المؤمنين الاختيارَ بين الصواب والخطأ ، الصوابُ في توقير الرسول بطريقة حوارهم معه وبحضرته بينهم ، والخطأُ في رفع الصوت في مكانه .

" وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ "الحجرات ٢

قمةُ الدعوة إلى التأدُّب بإيقاظ الضمير وحسن الانتباه في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجذبُ الانتباه إلى اليقظة يكونُ باستحضار مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم في كلِّ مكانٍ يكون فيه صلى الله عليه وسلم .

وسورةُ الحجرات على قِلَّة عدد آياتها إلَّا أنَّها غزيرةٌ بالقيم والمبادئ التي تُرشدُ المؤمنين إلى أعلى سُبُل التأدُّب في الحوار ، كما ترشدهم إلى نبذ كلِّ نقيصةٍ لفظيةٍ أو سلوكيةٍ أو اجتماعيةٍ أو ذاتيةٍ ، وكم رأينا أنَّ تلك المبادئَ التي ظنَّ اللغويون ابتكارَها ما هي إلَّا قطراتٌ لا ذكرَ لها أمام إعجاز ربِّ الخلق .

و ننتقلُ إلى جانبٍ آخرَ من المبدأ يتراوحُ بين استعماله وبين إهماله ، بين ذلك الرجل المؤمن في سورة "يس" وبين المشركين الذين جادلوه ، هذا هو محورُ الحديث في المبحث الثاني .

المبحث الثاني

(مبدأ التأدُّب في بعض آيات سورة يس)

يبرزُ في صورة "يس" ذلك الحوارُ الذي دار بين الرُّسُل وأهل القرية الكافرين ثُمَّ مشاركةُ الرجل المؤمن في الحوار وبيان مدى سعيه من أجل إقرار الحق وإبطال الباطل ، وتبدو المفارقةُ جليةً بين متحاورين متناقضين في الفكر وفي الوعي وفي المنطق ، فالرسولان من جهةٍ وأهل القرية من جهةٍ أخرى ، ثُمَّ يبرزُ الرجلُ المؤمنُ ليستكملَ الحوارَ مسانداً الرسولَين في مواجهة الباطل الذي استفحل حوارُه ؛ ليصلَ إلى حدٍّ قريبٍ من البطش، ونرى فيهما ذلك المبدأ بقواعده على نقيضين، فتبدأُ المساجلةُ في مشهدٍ فاضحٍ كاشفٍ لعقلية الكافرين وضعف منطقهم الحواري .

"وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ(١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ(١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ(١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ(١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ(١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ، أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ(١٩)" .

" وضربُ المثل يُستعملُ تارةً في تطبيق حالةٍ غريبةٍ بأخرى مثلها "[١٣]، فأرسل اللهُ رسولَين فكذبوهما، وهذه بدايةُ القصة بإعراضٍ تكذيبيٍّ لمْ يذكر القرآنُ لفظَه، وهو بدايةُ التناقض من قِبَلِ أهل القرية الكافرين، تناقضٌ مع قاعدة التودُّد ، ومع قاعدة التخيير ؛ فالرفضُ دون نقاشٍ تبدو فيه الانهزاميةُ الفكريةُ والنفسيةُ والخواءُ الفكريُّ عند الكافرين، ولعلَّنا نستشفُه من خلال بقية الحوار ، ثُمَّ كان التعزيزُ الإلهيُّ برسولٍ ثالثٍ ؛

لتكونَ الرسالةُ :" إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ " لتبدأَ المساجلةُ بين الفريقين ، فالرسلُ بكلِّ ودٍّ وحرصٍ يُبرزون هُوِيَّتَهم بصدقٍ ، تلك الهُوِيَّةُ التي يُدركُها كلُّ عاقلٍ يملكُ ولو قسطًا قليلًا من العلم ، يُبرزُ الرسلُ هُوِيَّتَهم؛ ليختارَ المخاطَبون الطريقَ الذي يسيرون فيه، وليتخذوا قرارَهم بأنفسهم، ولا ينوبُ عنهم فيها أحدٌ ، وكلماتُهم قليلةٌ تحملُ كلَّ مظاهر التعفُّف ؛ فالرسلُ ما هم إلَّا مبلِّغون رسالةً لا يفرضون أنفسَهم على مَن يدعونهم ، لكن يبرزُ الرَّدُّ العجيبُ .

" قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا، وَمَا أَنزَلَ الرَّحمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ".

فيأتي الرَّدُّ المغايرُ لكلِّ مبدإٍ في التأدُّب متدرجًا مُبرزًا الجهلَ، ثُمَّ التناقضَ ثُمَّ العدائيةَ ؛ ذلك لأنَّهم يزعمون أنَّ الرسلَ لا يكونون بشرًا ، وهو جهلٌ شديدٌ، فكيف يُرسَلُ رسولٌ للبشر إلَّا أن يكونَ منهم، وممثِّلًا لصورة الدين ويكونَ نموذجًا بشريًّا لهذا الدين ، فالمعنى الذي أرادوا التعبيرَ عنه بهذه الكلمات والذي ينفي كونَ المرسَلين رسلًا هو معنًى واهمٌ في نفوسهم المريضة، وهو خالٍ من كلِّ ودٍّ، وغير متعفِّفٍ يفرضُ نفسَه على المخاطَبين مُصْدِرًا أحكامًا يُريدُ إجبارَ المجتمعِ عليها ، وهو كلامٌ متناقضٌ يفتقدُ الصدقَ ، ذلك بإقرارهم بألوهية الخالق مع عدم التصديق بإرساله رسلًا لهم ، " وظاهرُ هذا القول يقتضي إقرارَهم بالألوهية ، لكنَّهم يُنكرون الرسالةَ ويتوسَّلون بالأصنام، وكان تخصيصُ هذا الاسم الجليل من بين أسمائه ﷻ ؛ لزعمهم أنَّ الرحمةَ تأبَى إنزالَ الوحي " [١٤] ، ثُمَّ تبدو العدائيةُ التي تُوشي أنَّهم على إنكارهم قد يتطاولون في العداء اللفظي إلى ما هو أشدُّ .

لكنَّ ردَّ الرُّسُل لمْ يحدْ عمَّا التزموه من آداب الرُّسُلِ في خطابهم الراقي تاركين الخيارَ للمخاطَبين دون جبرٍ أو قسرٍ غير فارضين أنفسَهم عليهم ، وما زالوا على بقاء الودِّ بعدم ردِّ الكلمة بكلمةٍ .

" قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ "

يُبرزُ الرُّسُلُ وظيفتَهم ويُبيِّنون مهمتَهم فيها ، وينتقلُ الحوارُ إلى التحذير ، فـ"رَبُّنَا يَعْلَمُ" نقلٌ للعدائية من الرُّسُلِ إلى الله ؛ لتحذير المخاطَبين من هذا الأمر وتحريك عقولهم ؛ لتعيَ ما ذكروه من رسائلَ في حديثهم معهم " استشهدوا بعلم الله تعالى ، وهو جارٍ مجرى القسم في التأكيد والجواب بما يُجابُ به ، وذكر أنَّ مَن استشهد به كاذبًا يكفرُ، ولا كذلك القسم على كذبٍ، وفيه تحذيرُهم معارضةَ علمِ الله تعالى، وفي اختيار عنوان الرُّبُوبية رمزٌ إلى حكمة الإرسال ، كما رمز الكفرةُ إلى ما يُنافيه بزعمهم "[١٥] ، ثُمَّ ينتقلُ الحوارُ إلى مرحلةٍ أشدَّ وأقسى ليصلَ إلى عربدة التفكير والاعتداء مقابل الهدوء .

"قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ " .

ويُسفِرُ الكافرون عن وجوههم الغاشمة بحُجَّةٍ نابعةٍ من نفوسهم التي مُلِئت كفرًا ، فلا تعفُّفَ ولا تودُّدَ ولا أيَّ شيءٍ من قواعد التأدُّب ، بل صلافة القول وجلافة اللسان وإغلاق القلب ، فيلجأون إلى اللامنطقية في الحوار والابتعاد عمَّا قد يُسفرُ إلى ضدِّ رأيهم ، فيتشبثون بخرافات الجاهلية " {قَالُواْ} لمَّا ضاقت عليهم الحِيَلُ وعييت بهم العِلَلُ {إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ} ، أي : تشاءمنا بكم ؛ جريًا على ديدن الجهلة، حيث يَتَيَمَّنُونَ بكلِّ ما يُوافقُ شهواتِهم وإنْ كان مستجلبًا لكلِّ شرٍّ ويتشاءمون بما لا يُوافقُها وإنْ كان

مستتبعًا لكلِّ خيرٍ، أو بناءً على أنَّ الدعوةَ لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من إصابةِ ضرٍّ إنْ لمْ يُؤمنوا فكانوا ينفرون عنه " (١٦) .

تتوالَى التدخلاتُ وفرضُ النفس والتطفُّلُ بل العداءُ والبغيُ مضادًّا كلَّ مبادئ التأدُّب، بل أقسى ما في الضدِّ ، وعلى النقيض ما زال الرسل ــ على الرغم ممَّا لاقَوا ــ ما زالوا يُبصِّرونهم بخرافات الوهم التي هي عالقةٌ في أذهانهم من الجاهلية، ويُذكِّرونهم بالله " أَئِن ذُكِّرْتُمْ ؟" بمنطقيةٍ وترك خيارِ الإجابة لهم " {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} في العصيان: ومِن ثَمَّ أتاكم الشُّؤمُ، لا من قِبَل رُسُلِ اللهِ وتذكيرِهم ، أو بل أنتم قومٌ مسرفون في ضلالكم متمادون في غَيِّكم " (١٧).

وتبرزُ الصورةُ الراقيةُ في الاستجابة لدعوة الرُّسُل في رجلٍ غيرِ معلومٍ عنه الكثيرُ، غير أنَّه جاء باذلًا جهدَه ساعيًا في نصرة الحق كارهًا لمنطق الباطل رافضًا للاعتداء على الرُّسُل، تلك الصورةُ التي تتحدَّثُ بتأدُّبٍ تامٍّ وفعلٍ موافقٍ لذلك الحديث :

" وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) ".

رجلٌ متودِّدٌ يبغي لقومه ــ على الرغم من قساوتهم ــ الهدايةَ ، كما اهتدى "كلمةٌ جامعةٌ في الترغيب فيهم، أي: لا تخسرون معهم شيئًا من دِيناكم وتربحون صحةَ دينكم، فينتظمُ لكم خيرُ الدنيا وخيرُ الآخرة، ثُمَّ أبرز الكلامَ في معرض المناصحة لنفسه وهو يُريدُ مناصحتَهم ؛ ليتلطفَ بهم

ويُداريهم، ولأنَّه أدخلُ في إمحاض النُّصحِ ، حيث لا يُريدُ لهم إلَّا ما يُريدُ لروحه"[١٨] ، متعفِّفٌ لا يفرضُ رأيَه ، بل ينتقدُ فرضَ الرأي على الرُّسُل متخذًا أقصى درجات التعفُّفِ، وهي الإيثارُ بالنَّفس لصالح الرُّسُل، منطقُه راقٍ يضربُ المثلَ بنفسه، يمتلكُ من المروءة والإخلاص ما يدفعانه إلى الوقوفِ موقفَ الرُّسُلِ ناصحًا ومتلقيًا عنهم عذابَ القومِ". وقيل: لمَّا نصح قومَه أخذوا يرجمونه فأسرع نحو الرُّسُلِ قبل أن يُقتلَ، فقال لهم: {إِنِّى ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون (٢٥)} ، أي : اسمعوا إيماني تشهدوا لي به "[١٩].

وهكذا ظهرت معالمُ المبدأ "مبدأ التأدُّب" بقواعده الثلاثة : (التعفُّف والتخيير والتودُّد) سلبًا وإيجابًا متراوحةً بين درجات الحوار اللفظي وما يُواكبُه من مقتضيات الحوار السياقي ، وكما ذكرنا في بداية البحث لمْ يكن الهدفُ هو قياسَ النَّصِّ القرآني على المبدأ ، بل بيان ما للمبدأ من دورٍ لكشف بعض ملامح النَّصِّ القرآني من خلال تفسيره ، وأشعرُ في نهاية البحث أنِّي رأيتُ في النَّصِّ القرآني نسقًا جديدًا لا شكَّ ليس هو كل ما يحملُه النَّصُّ القرآني من معنى ، لكنَّه كشف لي معانيَ بصورةٍ جديدةٍ وبنظرةٍ مغايرةٍ نقديةٍ لأسلوب المتحاورين متتبعةً درجاتِ الحوار وبلاغة النَّصِّ المرتبطة ببلاغة السياق ارتباطًا وثيقًا .

الخاتمة

فقد كان من أهمِّ النتائجِ التي توصَّلتُ إليها في هذا البحث ما يأتي :

١ – أنَّ للتأدُّبِ عند التخاطب قواعدَ ثلاثةٍ ، وهي : التعفُّف ، والتشكُّك أو التخيير ، والتودُّد .

٢ – أنَّ القواعدَ الثلاثةَ للتأدُّب جاءت في سورة الحجرات متراوحةً بين الخبر والإنشاء .

٣ – أبرزت السورةُ كيفية التودُّد بين العبد وربِّه ، كما بيَّنت السورةُ تعليمَ المؤمنين كيفيةَ إعمال العقل في الاختيار بين طريق الإيمان وما دونه.

٤ ــ أظهرت سورةُ يس معالمَ المبدأ "مبدأ التأدُّب" بقواعده الثلاثة: (التعفُّف والتخيير والتودُّد) سلبًا وإيجابًا متراوحةً بين درجات الحوار اللفظي ، وما يُواكبُه من مقتضيات الحوار السياقي .

٥ – أبرزت السورةُ الحوارَ الذي دار بين الرُّسُلِ وبين أهل القرية ، ثُمَّ مشاركة الرجل المؤمن في الحوار، ومدى سعيه إلى إقرار الحق وإبطال الباطل.

٦ – بيَّنت السورةُ ما بين المتحاورين من التناقض في الفكر والوعي والمنطق ، وأنَّ الرُّسُلَ لمْ يحيدوا عمَّا التزموه من آداب الرُّسُلِ في خطابهم الراقي تاركين الخيارَ للمخاطَبين دون جبرٍ أو قسرٍ غير فارضين أنفسَهم عليهم، وما زالوا على بقاء الودِّ بعدم ردِّ الكلمة بكلمةٍ.

كانت هذه هي أهمُّ النتائجِ التي توصَّلْتُ إليها في هذا البحثِ .

وبعد :

فهذا عَمَلٌ متواضعٌ بذلتُ فيه قُصارَى جهدي، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب . وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين

الهوامش :

(١) محمود طلحة ، تداولية الخطاب السردي ن دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي طبعة٢٠١٢ ص١٢٣، ص١٢٤.

(٢) طه عبدالرحمن ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي المركز الثقافي العربي طبعة ١٩٩٨ص٢٤١.

(٣) الشهري ، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية ، ص١٠٠.

(٤) طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ،ص٢٤٠.

(٥) الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية ص١٠٠.

(٦) الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية ص١٠٢.

(٧) أحمد كنون ، التداولية بين النظرية والتطبيق ، دار النابغة ، ٢٠١٥ ، ص ٢٣٨

(٧) "محمود الآلوسي البغدادي " روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني دار إحياء التراث العربي بيروت ج٢٦ ص١٣١.

(٨) أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ، تفسير الكشاف ص٥٥٦.

(٩) أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ، تفسير الكشاف ص٥٥٧.

(١٠) أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ،تفسير الكشاف ص٥٥٧.

(١١) أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ، تفسير الكشاف ص٥٥٨.

(١٢) محمد الطاهر بن عاشور " تفسير التحرير و التنويرط١٩٣٤ ج ٢٦ ص٢٢٠.

(١٣) محمود الألوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج٢٢

(١٤) محمود الألوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج٢٢

(١٥) محمود الآلوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج٢٢.

(١٦) محمود الآلوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج٢٢.

(١٧) محمود الآلوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج٢٢.

(١٨) أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ، تفسير الكشاف ص٥٥٨.

(١٩) أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري ، تفسير الكشاف ص٥٥٨.

قائمة المصادر والمراجع :

١- القرآن الكريم.

٢- محاضرات في السانيات التداولية ، د.خديجة بوخشة.

٣- الاستلزام الحواري في الدرس اللساني الحديث ــ طه عبد الرحمن أنموذجًا ــ د.ليلى كادة ، مقال بجامعة بسكرة .

٤- تجليات مفاهيم التداولية في التراث العربي ــ تفسير فخر الدين الرازي لسورة "المؤمنون" أنموذجًا ــ رسالة ماجستير للطالب " عبد الرحمن بشلاغم ".

٥- التداولية في الخطاب القرآني - سورة الحجرات أنموذجا ــ مقاربة تداولية ، إعداد الطالبتين: عميرة حملاوي ، لامية عيساوي " لنيل الماستر ".

٦- الضوابط التداولية للنص الديني ــ التفسير أنموذجًا ــ " بومنقاش الرحموني " ، بحثٌ لمؤسسة "مؤمنون بلا حدود ".

فهرس المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
١-	ملخص	٣١٤٥
٢-	Abstract	٣١٤٧
٣-	المقدمة	٣١٤٩
٤-	المبحث الأول : مبدأ التأدُّبِ في بعض آيات سورة الحجرات	٣١٥٤
٥-	المبحث الثاني : مبدأ التأدُّبِ في بعض آيات سورة يس	٣١٥٧
٦-	الخاتمة	٣١٦٢
٧-	الهوامش	٣١٦٣
٨-	قائمة المصادر والمراجع	٣١٦٥
٩-	فهرس المحتويات	٣١٦٦